

## SUFI ORDERS IN EGYPT 1517 - 1805

**Lecturer. Dr. Laith Ahmed ALI<sup>1</sup>**

Al-Mustansiriyah University, Iraq

### Abstract

Dhu al-Nun al-Misri (d. 245 AH / 859 AD) is considered the first to lay the foundations of Islamic Sufism in Egypt, and Sufism derived after him a method of a special, individual nature, until the Ayyubid era when Sultan Saladin al-Ayyubi established the Khanqah of Sa'id al-Sa'da in the year 569 AH / 1173 AD as a stable. Sufism became a social presence with its status and independence through its favor with the state and the endowments allocated to it. Then the Sufi orders coming from Iraq and Morocco began to spread widely in Egypt, the most important of which were the Rifa'iyya, the Qadiriyya, the Ahmadiyya, and the Shadhiliyya. Sufism witnessed a great boom in terms of the number of people belonging to it and the nature of the Sufism. The thought associated with it in the Mamluk era 1250 AD - 1517 AD, when the Mamluks respected their sheikhs and their belief in them increased. Imam Abd al-Wahhab al-Shaarani (d. 1565 AD) is considered the most prominent Sufi man in Egypt in the early Ottoman era, i.e. the sixteenth century AD, and his approach embodied the connection between the science of Sharia (jurisprudence) and the science of method (truth), so there is no separation between them in his concept. It is noted that the Sufi orders coming from outside Egypt: Iraq, Morocco, the Levant, and Turkey were the most widespread in Egypt. Although the Shadhiliyya order was the oldest intellectually, the Ahmadiyya order was the most widespread, popular and present, to the point that it had 16 branches in various parts of Egypt. The Desouki order was the only Egyptian order, but it was related to it after the Ahmadiyya in terms of influence. Sheikh Qasim al-Khani (d. 1697 AD), Sheikh Muhammad al-Munir al-Samnoudi (d. 1785 AD) and Sheikh Ahmed al-Dardir (d. 1786 AD) emerged as the most prominent men of the Sufi order in the seventeenth and eighteenth centuries AD through their writings that were widely circulated among the Sufis, especially the followers of the order. Seclusion, especially Al-Khani's writings related to the spiritual journey to God Almighty, which he divided into seven levels.

**Key words:** Dhu al-Nun al-Misri, Sufi orders, Egypt, Abd al-Wahhab al-Shaarani.

 <http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.28.30>

<sup>1</sup>  [dr.laithahmed@uomustansiriyah.edu.iq](mailto:dr.laithahmed@uomustansiriyah.edu.iq)

## الطرق الصوفية في مصر 1517 – 1805

م. د. ليث أحمد علي

الجامعة المستنصرية، العراق

### الملخص:

يعد ذو النون المصري (ت 245 هـ / 859 م) هو أول من أرسى دعائم التصوف الإسلامي في مصر، واستمد التصوف من بعده منهجاً ذو طبيعة فردية خاصة، حتى العصر الأيوبي عندما أنشئ السلطان صلاح الدين الأيوبي خانقاه سعيد السعداء عام 569 هـ / 1173 م كمستقر للصوفية فأصبح لهم وجود اجتماعي له مكانته واستقلالته من خلال حظوته لدى الدولة والأوقاف التي خصصت له، ثم بدأت الطرق الصوفية القادمة من العراق والمغرب بالانتشار في مصر بشكل واسع واهمها الرفاعية، القادرية، الأحمدية، والشاذلية، وشهد التصوف طفرة كبيرة من ناحية العدد المنتمين له وطبيعة الفكر المرتبط به في عصر المماليك 1250 م – 1517 م اذ وقر المماليك شيوخه وزاد اعتقادهم بهم. يعد الإمام عبد الوهاب الشعراي (ت 1565 م) أبرز رجال التصوف في مصر في أوائل العصر العثماني أي القرن السادس عشر الميلادي والذي جسد منهجه الارتباط بين علم الشريعة (الفقه) وعلم الطريقة (الحقيقة) فلا انفصال بينهما في مفهومه. يلاحظ ان الطرق الصوفية الوافدة من خارج مصر: العراق، المغرب، بلاد الشام، تركيا كانت الأكثر انتشاراً في مصر. رغم ان الطريقة الشاذلية كانت الأقدم فكرياً، غير ان الطريقة الأحمدية كانت الأكثر انتشاراً وشعبية وحضوراً حتى أصبح لها 16 فرعا في مختلف أنحاء مصر. كانت الطريقة الدسوقية هي الطريقة المصرية الوحيدة إلا انها كانت بعد الأحمدية من جهة التأثير مرتبطة بها. برز الشيخ قاسم الخاني (ت 1697م)، الشيخ محمد المنير السمنودي (ت 1785 م) والشيخ احمد الدردير (ت 1786 م) كأبرز رجال الطرق الصوفية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي من خلال كتاباتهم التي تم تداولها بشكل واسع بين المتصوفة لاسيما اتباع الطريقة الخلوتية، لاسيما كتابات الخاني المتعلقة بالرحلة الروحية إلى الله تعالى التي قسمها إلى سبع درجات.

**الكلمات المفتاحية:** التصوف، مصر، العصر العثماني، عبد الوهاب الشعراي.

### المقدمة

احتل التصوف الإسلامي مكانة بارزة و متميزة في المجتمع المصري لارتباطه بالناس ومتطلباتهم واحتياجاتهم المختلفة، ومن هنا أتت دراسة هذا الموضوع "الطرق الصوفية في مصر 1517-1805" ليتناول بالبحث هذه المرحلة المهمة من التاريخ المصري الحديث وتطور الطرق الصوفية فيها، لاسيما انها شهدت نمواً واتساعاً لها بشكل ملحوظ ووافقت لرعاية الدولة لها، تناول المحور الأول "الإطار النظري المفاهيمي" معنى التصوف ودلالاته وفق أطره المختلفة مسترشداً بآراء كبار المتصوفة الأوائل الذين شادوا أسس هذا المنهج في الحياة، أبرز المحور الثاني "أهم ملامح الطرق الصوفية" وهي الشيخ والمريد والشروط والمميزات التي من الواجب توفرها فيهما، جاء المحور الثالث "التصوف في مصر قبل العصر العثماني" مدخلاً تمهيدياً لنشأته في مصر وفق تسلسله الزمني ابتداءً بذو النون المصري الذي وضع القواعد المشيدة له وحتى عصر المماليك الذين أحاطوا رجاله بتقدير عالي، أما المحور الرابع "أنواع الطرق الصوفية ورجالها

ومناهجها في العصر العثماني" التصوف في هذا العصر وأبرز رجاله لاسيما الإمام عبد الوهاب الشعراني وقاسم الخاني ومنطلقاتهم وملامح فكرهم الصوفي.

### المحور الأول: الإطار النظري المفاهيمي:

الطريقة كمفهوم لدى المتصوفة هي إقامة ناموس العبودية عبر الرحلة الممتدة من الخلق إلى الخالق سبحانه وتعالى، وهي السبيل للعروج من العالم الفاني إلى حضرة الباقي غز وجل، وقد تم استعمال لفظة سلوك إشارة إلى الطريقة الصوفية، لما يحتويه من معاني خاصة بالدخول والخروج سوية، فالطريقة خروج من وهم الغفلة وحب الدنيا، والدخول في طاعة المولى عز وجل ومحبهه<sup>(2)</sup>، "والطريقة عند أهل الحقيقة عبارة عن مراسم الله تعالى، وأحكامه التكليفية التي لا رخص فيها، وهي المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي والمقامات، ونجد انه عندما نشأ التصوف الإسلامي في أواخر القرن الثاني الهجري كاستمرارية لحركة الزهد الإسلامية الأولى، نجد ان هذا المصطلح (الطريقة) اتخذ مفهوماً خاصاً، فأصبح يعني عند متصوفة القرنين الثالث والرابع الهجريين "مجموعة الآداب والأخلاق والعقائد التي يتمسك بها طائفة الصوفية"<sup>(3)</sup>، ورأى المؤرخ المصري محمد صبري الدالي ان مفهوم التصوف في بادئ الأمر لم يكن معقدا ولم يتجاوز حدود القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والافتداء بالنبي محمد صلى الله وعلى اله وصحبه وسلم" والصحابة والأولياء والزهد والتعب وجعل الأولوية للأخرة على حساب الدنيا، إلا ان المتصوفة حسب رأيه تباينوا في هذا المفهوم في مراحل لاحقة، وبالتالي انعكس على تعريفاتهم، ومن أسباب عدم سهولة الوصول لتعريف مقنع للتصوف ان الصوفية لا يستحسنون وقوف غير الصوفي من تعريفاتهم موقف الحكم، ويرفضون أعمال سلطان العلم بالملاحظة والاستقراء وسلطان العقل بالبحث والاستنتاج ويعتمدون على سلطان الروح حيث الإشراق والإلهام، على ان تعريف المتصوف للتصوف يعني وبشكل دائم المثل الصوفية والأخلاقية والإنسانية والاجتماعية التي يطمح المتصوف بالوصول اليها في لحظات الوجد الخالصة<sup>(4)</sup>.

إلا ان الباحث محمد طه زيدان أشار إلى ان الصوفية اتفقوا على ان العلم هو أول فرض فرضه الله على عباده، واستندوا في ذلك إلى قول رويم البغدادي حين سئل عن أول ما فرضه الله على خلقه فقال المعرفة بقوله تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"<sup>(5)</sup>، قال ابن عباس في تفسير الآية إلا ليعرفوني، وشرح التلمذي الحكيم سركون العلم هو أول عبادة الرب سبحانه وتعالى بقوله انك اذا علمت عرفت، واذا عرفت عبت<sup>(6)</sup>، وقال الجنيد البغدادي "ان أول ما يحتاج اليه العبد من عقد الحكمة: معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان أحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدث، ويذل لدعوته، ويعترف بوجوب طاعته، فان من لم يعرف مالكة لم يعترف بالملك لمن استوجبه"<sup>(7)</sup>

<sup>2</sup> يوسف محمد طه زيدان، الطرق الصوفية وفروع القادرية في مصر، دار الجيل، بيروت 1991، ص 19.  
<sup>3</sup> عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها: الرفاعي - الجيلاني - البدوي - الشاذلي، الدسوقي، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة (د.ت)، ص 18-19.

<sup>4</sup> محمد صبري الدالي، التصوف وأيامه: دور المتصوفة في تأريخ مصر الحديث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2012، ص 15-16.

<sup>5</sup> سورة الذاريات / 56.

<sup>6</sup> ينظر، يوسف محمد طه زيدان، المصدر السابق، ص 23-24.

<sup>7</sup> أبي قاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 2001، ص 12.

ان هنالك تعريفات ذات طابع قيمي فلسفي للتصوف ترى فيه نزعة فطرية في الانسان نحو التسامي والكمال والمعرفة عن طريق الكشف الروحي او العلمي اليقيني الناشئين عن الإلهام الإلهي والنظر العقلي والرياضة النفسية وبعض الأدلة الحسية وطريقة المسلكي هو حجب النفس الموجبة للنقص بالمجاهدة بغية الكمال، وضمن هذا الإطار هنالك عشرات التعريفات للمتصوفين الأوائل، فالجنيد رأى أيضا ان التصوف هو "ان يميته الحق عنك ويحييك به" اما الشبلي فقد عرفه على انه "الدخول في كل خلق سني والخروج من كل وصف ديني" وعرفه رويم البغدادي بانه "استرسال النفس مع الله على ما يريد"، اما معروف الكرخي فقد عده "الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"، وهنالك تعريفات ركزت على سلوك وأفعال المتصوفة مثل ما ذكره السراج الطوسي حين قال "المتصوفة هم من يتركون ما لا يعينهم ويقطعون كل علاقة تحول بينهم وبين مقصودهم ومطلوبهم وهو الله سبحانه وتعالى، ثم لهم آداب وأحوال شتى منها القناعة بالقليل والاختصار على ما لا بد منه من حاجات الدنيا من الملبوس والمأكل والمفروش واختيار الفقر على الغنى اختياراً ومعانقة القلة ومجانبة الكثير وإيثار الجوع على الشبع والشفقة على الخلق والتواضع للصغير والكبير والتوجه إلى الله تعالى والانقطاع عليه (8).

### المحور الثاني: أهم ملامح الطرق الصوفية

**أولاً: الشيخ:** هو بمثابة الأستاذ المرشد والمرشد وليس بمقدور الفرد في نظر الصوفية ان يسلك هذا الطريق لوحده لأنه طريق فيه صعوبات وتشعبات، والشيخ هو الذي يحدد لمريده طرق الوصول إلى الله تعالى ويعاونه على السير، والشيخ المسلك هو "الذي سلك الطرق على يد شيخ واصل، فترقى في المقامات من مقام التوبة إلى مقام المشاهدة ... ثم عاد بعد اعتلاء تلك المقامات لقيم الشريعة وسلك الناس في مراحل الطريقة، ويفتح لهم بأذن الله أبواب ومنافذ يشرفون منها على أضواء الحقيقة" ويقول الشيخ شهاب الدين السهروردي "ولا بد للمريد من شيخ مرشد إلى الحق يرشده ويلقنه الذكر"، أما الشروط والمواصفات المطلوبة في الشيخ فحدثنا عنها الامام الجنيد بقوله "لا يستحق ان يكون شيخاً حتى يأخذ حظه من كل علم شرعي، وان يتورع عن جميع المحارم، وان يزهد في الدنيا، وان لا يشرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه عن مداواة نفسه، وحتى يكون على علم يهدي به العباد فاذا مرض مريده بسبب شبه في علم التوحيد داواه، واذا تحير في مسألة من مسائل الفقه أفتاه، ويشترط ان تكون لديه القناعة بالغنى عن الناس، وان يخاف ويخشى من المعاصي والأعمال غير الصالحة وان يلزم العمل بالكتاب والسنة" (9) وليس الشيخ إليها للعبادة كما ظن بعض فاقدي البصيرة والحس السليم وإنما أداة صحيحة للوصول إلى مرضاة الله، فهو مربي مر بالمحن وانتصر على نفسه وشهواتها، والذي يقبل المرشد من عثراته في رحلته إلى الله ويحميه من كل المخاطر لأنه قد خبرها كلها (10).

ثانياً: المرشد: اذا ما كان الشيخ يشكل العنصر الأساسي في الطرق الصوفية فان عدم وجود مريده بهذه الطرق لا يجعل هنالك أي وجود للطرق الصوفية، والمرشد هو الذي يسلك في الطريقة حسب توجيهات شيخه لحين الوصول إلى مبتغاه، ويمكن إيجاز خطوات المرشد نحو الطريقة في ثلاثة مراحل تبدأ بالتوبة، ومن ثم أخذ العهد من الشيخ على طاعة

<sup>8</sup> عمار علي حسن، الصوفية والسياسة في مصر، سلسلة كتاب المحروسة، مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر، القاهرة 1997، ص 32.

<sup>9</sup> عامر النجار، المصدر السابق، ص 24-25.

<sup>10</sup> منال عبد المنعم جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الإسكندرية (د.ت)، ص 190.

الله ورسوله وأخيرا التلقين وهو تعليم الشيخ لمريده كيفية الذكر، ومن واجبات المريد عدم كتمان أي أسرار عن شيخه بل من الواجب عليه ان يبين له كل ما يجول في فكره من أسرار وخطرات وهموم ومشكلات فهو بمثابة الطبيب (11) وقال الإمام القشيري "فأول قدم للمريد في هذه الطريقة ان ينبغي ان يكون على الصدق، ليصح له البناء على اصل صحيح، فان الشيوخ قالوا: إنما حُرِّموا الوصول لتطبيعهم الأصول" (12)، وأضاف "ومن شرطه: ان لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه، فاذا خطر ببال المريد ان له في الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة، أو على بسيط الأرض أحد دونه لم يصح له في الإرادة قدم، لأنه يجب ان يجتهد، ليعرف ربه، ولا يحصل لنفسه قدراً" (13).

### المحور الثالث: التصوف في مصر قبل العصر العثماني

ذهبت بعض الآراء إلى ان ظهور مصطلح الصوفي في مصر قد ظهر في مدينة الإسكندرية في عام 200 هـ إذ ظهرت جماعة سموها بالصوفية كانت تأمر بالتحلي بمكارم الأخلاق والتقوى وترأسهم رجل دعي أبو عبد الرحمن الصوفي وكان ذلك في عام 201 هـ / 816 م (14)، على انه من الثابت أن أول من أسس للتصوف في مصر هو ذو النون المصري (ت 245 هـ / 859 م) والذي كان أول صوفي تحدث عن علوم المقامات والأحوال (15)، ونقل عنه الإمام القشيري قوله "من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله، صلى الله عليه وسلم، في أخلاقه، وأفعاله، وأوامره، وسننه. وسئل ذو النون عن السفلة فقال: من لا يعرف الطريق إلى الله، ولا يتعرفه" (16)، "وسئل عن المحبة، فقال: ان تحب ما احب الله، وتبغض ما ابغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، والا تخاف في الله لومة لائم... مع العطف للمؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الدين... الصدق سيف الله في أرضه ما وضع على شيء إلا قطعه" (17)، واشترك معه في غرس مبادئ التصوف في القرن الثالث الهجري صوفيان آخران حازا مكانة رفيعة وهما أبو بكر الدقاق المصري، وأبو الحسن بن بنان الحمال (ت 336 هـ - 947 م)، ومن اعلى رجالات التصوف في ذلك القرن أبو علي الروذباري (ت 332 هـ - 943 م)، وأبو الخير الأقطع التيجاني (ت 343 هـ - 954 م)، وأبو القاسم الصامت (ت 427 هـ - 1035 م) (18).

ظل التصوف منهجا فرديا في مصر حتى أواخر القرن السادس الهجري إثر قيام صلاح الدين الأيوبي بإنشاء أول بيت للمتصوفة بعد قضائه على دولة الخلافة الفاطمية (19)، فقد أنشأ الخانقاه وهي تكية سميت سعيد السعداء او الصالحية في عام 569 هـ - 1173 م لكي تكون مكانا لإقامة الصوفية القادمين إلى القاهرة حديثا. وقد بناها في قلب المدينة وأسسها مع وقف ليتأكد أنها ستستمر تمثل ملاذاً للصوفية لمدة طويلة بعد مغادرته البلاد. فضلاً عن إيجاده منصب شيخ الشيوخ

11 عامر النجار، المصدر السابق، ص 26.

12 أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، المصدر السابق، ص 424.

13 المصدر نفسه، ص 427.

14 عبد القادر موسى المحمدي، نشأة التصوف الإسلامي وتطوره في العراق، سلسلة دراسات (120)، دار الشؤون الثقافية العامة/ وزارة الثقافة، بغداد 2013، ص 65.

15 عامر النجار، المصدر السابق، ص 62.

16 ينظر، أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، المصدر السابق، ص 24.

17 أبي عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، سلسلة كتاب الشعب، تحقيق أحمد الشرياصي، الطبعة الثانية، القاهرة 1998، ص 12-14.

18 عامر النجار، المصدر السابق، ص 62.

19 سعيد عبد الفتاح عاشور، السيد أحمد البدوي: شيخ وطريقة، سلسلة اعلام العرب (58)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (د.ت)، ص 34.

وهو رئيس الصوفية، وهذا المنصب مثل نوعاً مناظراً لمنصب قاضي القضاة، وأصبح شيخ الشيوخ أداة اتصال بين النخبة الحاكمة والمجتمعات المحلية للصوفية في مصر وسوريه الكبرى، نظرياً، سلطة شيخ الشيوخ جغرافياً كانت مشتركة مع الحكم الأيوبي نفسه، إلا انه في الواقع لم يجري العمل بينهما بهذه الدقة، وبالنسبة للمتصوفة الذين عاشوا في خانقاه فانه بموجب الشروط المنصوص عليها في الأوقاف قد أعطوا حصة تموينية يومية من الطعام والحلويات، رواتب صغيرة، وحتى إجازة من خانقاه لأداء الحج إلى مكة، بل ان شيخ الشيوخ نفسه استلم راتباً مجزياً بالإضافة إلى السلطة والمهابة التي صاحبت هذا الموقع البارز، ومثلت رعاية صلاح الدين لخانقاه سعيد السعداء عنصراً واحداً من مشروع بنائه الأكبر لتغيير الطوبوغرافية الدينية للقاهرة والفسطاط، لا سيما ان ذلك الخانقاه كان في الأصل قصرًا فاطمياً<sup>(20)</sup>، وضمن ذات المعنى ذكر المؤرخ المصري توفيق الطويل لقد كان المتصوفة يقيمون جماعات تحت إدارة شيوخهم، في أماكن اطلقوا عليها اسم الزوايا، طاعمين كاسين على نفقة المحسنين من الأثرياء والأمراء، متجريدن لعبادة الله تعالى منقطعين لذكره زهدوا في طلب الدنيا، واعرضوا عن لذاتها وهذا التصوف الجمعي لم تكن نشأته في مصر سوى قبل النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وقد سجل المقرئ تاريخ نشأته في عام 569 هـ / 1173 م، ورغم ان هنالك آراء مخالفة لذلك إلا ان رأي المقرئ اقرب للصواب، اما أسماء ومسميات المعابد الصوفية في مصر فهو الخوانق والربط والزوايا، أما خانقاه فهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة، وقد اضمحلت هذه التسميات بمرور الوقت واطلق عليها التكية والتكيا هي أماكن لإقامة وتعبد الدراويش، هذا من جانب ومن جانب آخر، فان الربط كما عرفها المؤرخين ومنهم المقرئ وعلي مبارك دور أعدت لإقامة المتصوفة وقد خصص بعضها للنساء المنقطعات او المهجورات او المطلقات او الأرامل الطاعنات في السن، وكان لها الجرايات والمقامات المعروفة من مجالس الوعظ، في حين ان الزوايا كانت تعد منذ مدة طويلة أماكن لإقامة بعض الصالحين للتعبد فيها، ولم تكن تقام فيها صلاة الجمعة ثم تغير الحال وأقيمت صلاة الجمعة في معظمها، ويشير المقرئ في حديثه عن الزوايا إلى انها كانت دوراً لتعبد الصالحين من المتصوفة من فقراء العجم والخدام من الحبش وسواهم من اهل الصلاح والتقوى<sup>(21)</sup>. أما المدارس الصوفية التي نالت أهمية كبرى في القرن السادس الهجري فهي المدرسة التي أسسها في صعيد مصر الشيخ عبد الرحيم القنائي (ت 592 هـ / 1196 م)، والشيخ أبو الحسن الصباغ (ت 613 هـ / 1216 م)، لكن القرن السابع الهجري شهد نمو وتعدد الطرق الصوفية، فقد جاء إلى مصر من العراق الشيخ أبو الفتح الواسطي الذي اتخذ من الإسكندرية مقاما له ونشر الطريقة الرفاعية<sup>(22)</sup> فيها<sup>(23)</sup>، فضلا عن الطريقة القادرية<sup>(24)</sup> التي تأسست لها في مصر أربعة فروع هي: القادرية الفارضية، القادرية القاسمية، القادرية الشرعية والقادرية النيازية<sup>(25)</sup>، كما وفد إلى مصر

<sup>20</sup> Nathan Hofer, The Popularization of Sufism in Ayyubid and Mamluk Egypt 1173-1325, Edinburgh University Press, Edinburgh 2015, P. 35-38.

<sup>21</sup> ينظر، توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، السلسلة الفلسفية والاجتماعية (3)، مكتبة الآداب، القاهرة (د.ت)، ص 37-39.  
<sup>22</sup> تنسب الطريقة الرفاعية إلى الولي العارف بالله السيد احمد الرفاعي، الذي ولد في قرية حسن التابعة لواسط في العراق عام 512 هـ - 1118 م، وترعرع في بيت للعلم والصلاح، عرف بزهده وتقواه وورعه، تميز بمواعظه ونصحه للناشئة وتوجيهه لمريديه، دعا للتمسك بالكتاب والسنة في تصوفه ورأى ان المتصوف يجب ان لا يسير وفق أي نهج سوى النهج النبوي، وصف بانه وحيد زمانه في التصوف والتقوى، توفي في عام 578 هـ. للمزيد من التفاصيل، ينظر، يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، السيد احمد الرفاعي قدس الله سره: حياته - آثاره (512 هـ - 1118 م - 578 هـ - 1182م)، مطبعة الإرشاد، بغداد 1970، ص 11-63، ابن الملن، طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريه، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، القاهرة 1994، ص 93-101.

<sup>23</sup> عامر النجار، المصدر السابق، ص 62.  
<sup>24</sup> هي الطريقة المنسوبة للولي العارف بالله الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي ولد في جيلان عام 470 هـ - 1077م، جاء إلى بغداد عام 488 هـ - 1088م حيث تفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل ثم اخذ الطريقة الصوفية على يد الشيخ أبا الخير حماد الدباس، فوضه ابي سعيد للتدريس والفتوى في مدرسته في باب الازج وظل فيها حتى وفاته في عام 571 هـ - 1166م، ينظر، عبد القادر موسى المحمدي، المصدر السابق، ص 185-186.

<sup>25</sup> يوسف محمد طه زيدان، المصدر السابق، ص 183.

قادما من المغرب الشيخ أبو الحسن الشاذلي<sup>(26)</sup>، الذي أسس طريقته فيها ومن تلامذته المرسي أبو العباس<sup>(27)</sup>، ومن أقواله "إذا ثقل الذكر على لسانك وكثر اللغو في مقالك وانبسطت الجوارح في شهواتك وانسد باب الفكرة في مصالحك فاعلم ان ذلك من عظيم أوزارك او لكون إرادة النفاق في قلبك وليس لك إلا الطريق<sup>(28)</sup> والإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص في دين الله تعالى" وفروعها في مصر هي: البكرية، السلامية، الخواطرية، القواقجية، الوفاية، الحامدية، الجوهريّة، العزمية، الفيضية، الهاشمية، السمانية، العفيفية، القاسمية، العروسية والهندوشية<sup>(29)</sup>، كذلك السيد احمد البدوي<sup>(30)</sup> صاحب الطريقة الأحمدية الذي كان رجلا وهب نفسه لله، ملتزما امرين لم يتخل عنهما طيلة حياته: احدهما مجاهدة نفسه بالعبادة والزهد والتقوى، والثاني هداية الناس على أساس من الكتاب والسنة"، اما غايته فهي "غاية خلقية تتمثل في إنكار الذات والصدق في القول والعمل والصبر والخشوع ومحبة الغير والتوكل وغير ذلك من الفضائل التي دعا الإسلام عليها"<sup>(31)</sup>، وقد تفرعت عن طريقته طرق كثيرة منها: المراقبة الأحمدية، البيومية الأحمدية، الحلبية الأحمدية، الانبابية الأحمدية، المنايفة الأحمدية، الكناسية الأحمدية، السطحية الأحمدية، السلامية الأحمدية، الشناوية الأحمدية، الفرغلية الأحمدية والجوهريّة الأحمدية<sup>(32)</sup>، ولم يقتصر الأمر على المغاربة في تأسيس الطرق الصوفية في مصر، فقد تأسست طريقة مصرية هي الطريقة الدسوقية (البرهامية) التي نسبت إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي<sup>(33)</sup>، أما رايه في التصوف فيقول "يا فلان: اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت ان استطعت اليه سبيلا، وعلى ان تتبع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المرضية، والامتثال بطاعة الله عز وجل قولاً وفعلاً واعتقاداً، وان لا تنظر يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها، واتبع نبيك في أخلاقه، وفان لم تستطع فان نزلت عن ذلك هلكت، واعلم يا ولدي ان طريقتنا هذه طريقة تحقيق وتصديق وجهد وعمل

<sup>26</sup> الشيخ أبو الحسن الشاذلي الولي العارف بالله نسبت الطريقة الشاذلية اليه، وهو علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، ولد في قرية شاذلة في المغرب عام 571هـ / 1176م، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وكان ذا وقار ومكانة كبيرة، انتقده ابن تيمية فرد عليه، وقد وصف بأنه قطب الزمان، حجة الصوفية، علم المهتمدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، توفي في صحراء عيذاب وهي بلدة على ضفاف بحر القلزم وتوفي فيها وكان ذلك أثناء توجهه للحج ذلك في عام 656 هـ - 1258 م، ينظر، أبي علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي، طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية، وضع حواشيه مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت 2005، ص 21-22، عبد الوهاب الشعراي، الطبقات الكبرى المسمى لوائح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية، سلسلة المكتبة الصوفية، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت)، ص 8-10.

<sup>27</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، السيد أحمد البدوي ... المصدر السابق، ص 36.

<sup>28</sup> عبد الوهاب الشعراي، الطبقات الكبرى، المصدر السابق، ص 10.

<sup>29</sup> عامر النجار، المصدر السابق، ص 146.

<sup>30</sup> ولد الولي العارف بالله السيد أحمد البدوي في مدينة فاس في المغرب عام 596 هـ - 1200 م، ارتحل مع والده إلى مكة ولم يبلغ من العمر سوى سبع أعوام، وأقام فيها حيث عرف بشجاعته وورعه وزهده وتدينه، ثم سافر إلى العراق في عام 634 هـ - 1237 م، حيث زار مرقد الشيخ عبد القادر الجيلاني والإمام موسى الكاظم وحفيده موسى الجواد (رضي الله عنهم)، ثم عاد إلى مكة عام 635 هـ - 1238 م ومن ثم شد الرحال إلى مصر حيث نزل في مدينة طنطا، وأسس الطريقة البدوية، توفي في طنطا عام 675 هـ . 1177م، ينظر، سعيد عبد الفتاح عاشور، السيد أحمد البدوي....، المصدر السابق، ص 44-95.

<sup>31</sup> عامر النجار، المصدر السابق، ص 118.

<sup>32</sup> عبد الحكيم خليل سيد أحمد، المعتقدات الشعبية في الطقوس والشعائر الصوفية: دراسة ميدانية للطريقة الجازولية الحسينية الشاذلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2012، ص 47.

<sup>33</sup> ولد الولي العارف بالله الشيخ إبراهيم الدسوقي في قرية دسوق في مصر في عام 633 هـ - 1236 م، درس الفقه على مذهب الإمام الشافعي ونبغ في الفقه والتصوف واللغة والأدب، انتهى نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، ومن تلامذته: السيد أحمد ربيع، السيد أبي النصر، السيد محمد قيراطن والسيد جلال الدين الكركي، مزج بين علم الفقه والتصوف، ونهى عن البطالة والتكاسل بين المتصوفة وحث مرديبه على الدوام على اتخاذ حرفة وصنعة لهم، توفي في عام 676 هـ - 1268 م، ينظر، الهيئة العامة للاستعلامات، العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي، منشورات وزارة الإرشاد القومي، القاهرة (د.ت)، ص 9-17.

وتنزه و غص بصر" (34)، ودعت طريقته إلى الخروج عن النفس وحظوظها، رأس مالهم المحبة لكافة عباد الله، والتسليم والسكون تحت مراد الشيخ وأمره، كما دعت إلى العلم والعمل به" (35).

وعند قيام الدولة المملوكية في مصر عام 1250م دخل التصوف مرحلة من أهم مراحل تطوره، ومع ان تلك المرحلة عدت توأصلا للعصر الأيوبي، فان التصوف انتشر فيها بمستوى أكبر على الصعيدين الشعبي والرسيمي، سواء من حيث عدد المتصوفة كأفراد، او في عدد بيوتاتهم، او في مقدار التطور الذي حصل للتصوف نفسه في الممارسات والتفكير، لقد كانت الدولة المملوكية دولة إقطاعية بحكم طبيعة بنيتها العسكرية والاقتصادية، وفي ظل هذا النظام أصبح وضع الفلاح المصري سيء فحتى لو كان اهتمام الإقطاعيين المالكين بالأرض كبيرا، فاننا نجد ان الفلاح عاش منجذبا نحو الأرض التي يقوم بفلاحتها وإفناء حياته فيها ولا يحصل من خيراتها إلا على النزر اليسير اذ كانت خيراتها نهباً موزعاً بين السلاطين والامراء ومماليكهم، أما رؤية المتصوفة لهذا الواقع فقد وصف احدهم ذلك قائلا "كان الفلاح عند موته يترك شيئا من الدراهم، ولكنه الآن لا يستطيع إلى ذلك سبيلا، بل هو يبيع الحاصلات والمواشي لتسديد ما عليه من الضرائب، واذا لم يسدد ضرب وسجن"، في ذلك الوقت زاد الاهتمام بالعلوم الدينية / الصوفية كما فتح الباب على مصراعيه لدخول الناس في سلك الطرق الصوفية، وكما انتشرت في الريف فانه في المدن أيضا حيث توجد أماكن التصوف العديدة والمشهورة، اتسعت ظاهرة اللجوء إلى الأولياء وذلك التماسا لبركتهم، علاوة على ظاهرة اللجوء لبيوت المتصوفة من خانقاهات وزوايا وربط (36).

وكان الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في عهد المماليك قد أخذ صيغة من الفخامة والعظمة، وحرص السلاطين على مشاركة رعاياهم في هذه المناسبة، ومنذ عهد السلطان قايت باي جرت عادة السلاطين على إقامة خيمة كبيرة سميت خيمة المولد وعند أبوابها حوض جلدي مليء بعصير الليمون، وقد وقفت طائفة من صغار الخدم يناولون الناس الأكواب، وبعد ذلك يبدأ المنشدون المتصوفة باهازيجهم في مدح الرسول (صلى الله عليه واله وصحبه وسلم) حتى ثلث الليل، وقد بلغ اعتقاد بعض سلاطين المماليك في المتصوفة إلى درجة ان السلطان الظاهر بيبرس أكثر سلاطين المماليك ذيوياً اعتقد في الشيخ احمد البدوي (قدس الله سره) وكان يأتي لزيارته في طنطا ويجله، واعتقد بيبرس كذلك في الشيخ خضر بن موسى المهراي الذي اشتهر بشيخ الظاهر بيبرس، وعندما أراد المسؤولون إغلاق مطبخ الخانقاه الصوفية عند انحسار ماء النيل في عهد الملك الظاهر برفوق اشتكى المتصوفة لبرقوق الذي أوكل للأمر يلبغا السالمي مسؤولية النظر في هذه الشكوى وطلب منه ان يعمل حسب شروط الواقف فلما نزل إلى الخانقاه واجتمع بشيخ المتصوفة سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني والذي افتاه بالعمل حسب شروط الواقف وقال ان الخانقاه من اللازم ان تكون وقفا على المتصوفة سواء القاطنين في القاهرة او الواردين من بلاد الشام فان لم يوجد كانت للفقراء من الفقهاء الشافعية والمالكية والأشعرية وكان له ما أراد، وقد لجأ السلطان برفوق إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية اكمل الدين البابرقي لإبرام الصلح بين اثنين من أمراءه كان قد نشب نزاع بينهما واستطاع تحقيق ذلك (37).

وقد وصلت مكانة المتصوفة في العصر المملوكي إلى درجة رفع الكلفة بينهم وبين السلاطين، وقد دأب السلاطين على أخذ مشورتهم وعند موتهم مشوا في جنازاتهم اذ سار السلطان برفوق في جنازة البابرقي وظل واقفا على قبره لحين

34 عامر النجار، المصدر السابق، ص 159-160.

35 عبد الحكيم خليل سيد أحمد، المصدر السابق، ص 48.

36 محمد صبري الدالي، المصدر السابق، ص 44-50.

37 عمار علي حسن، المصدر السابق، ص 89-91.

دفنه، وحضر السلطان جقمق جنازة ابن حجر وحضر السلطان الأشرف برسباي جنازة ابن عرب، وقد أثار العدد الكبير من المؤسسات التي انشأها المماليك للمتصوفة انبهار الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر ولعل الحادثة التي حصلت مع السلطان طومان باي تدعم الرأي القائل باتساع نفوذ المتصوفة في مصر، إذ بين المؤرخون انه بعد السيطرة العثمانية على الشام وتوجههم للزحف نحو مصر، وتحقق الأمراء المماليك من موت السلطان قانصوه الغوري على يد العثمانيين في معركة مرج دابق عام 1516 م اختاروا طومان باي لخلافته فامتنع بسبب فراغ خزائن المال وانه لا يضمن طاعة الامراء له في قتال العثمانيين من دون إمدادهم بالأموال، فتوجه الأمراء إلى شيخ المتصوفين أبو السعود الجارحي واستعانوا به، والذي قام بدوره بإحضار مصحف طالبا منهم ان يقسموا على طاعة طومان باي فقام جميعهم بفعل ذلك فتولى السلطة وتوجه لملاقاة العثمانيين في الريدانية (38).

وأولى سلاطين المماليك وأمرائهم عناية بالغة ببيوت الصوفية فأنشأوا العديد منها وخصصوا لها الأوقاف الوفيرة، حتى انه جعل تنافس بينهم في بناء الزوايا، وعندما كان يتم الفراغ من بناء أحدها يقوم السلطان بنفسه بافتتاحها في احتفال مهيب يحضره الفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية، بل ان السلاطين حضروا من وقت لآخر بأنفسهم لمجالس الذكر التي كانت تقام فيها (39).

#### المحور الرابع: أنواع الطرق الصوفية ورجالها ومناهجها في العصر العثماني

في مصر العثمانية كما في أوقات وأماكن أخرى، الطامح لان يريد ان يصبح صوفيا عموما يجب عليه الارتباط بشيخ على قيد الحياة، مقيما صلات قريبة ومباشرة معه. وانه من الضروري كذلك ان يشكل علاقات مع أصحاب شيخه الآخرين. هذه المقاربة تمت صياغتها على أنموذج النبي محمد (صلى الله عليه واله وصحبه وسلم) وصحابته (رضي الله عنهم). الطريقة لذلك داخلية وخارجية، التقدم عموديا باتجاه الله وأفقيا من خلال الأخوة بين المريدين (الإخوان)، وهكذا شكلا المطابقة. من الواضح ان البعدين الاثنين للمسار، الروحي والاجتماعي، لا يمكن ان ينفصلا، فمن دون جانبها الروحي وفحواها المقصورة على فئة معينة فان الطريقة ككيان اجتماعي ليس هنالك سبب لوجودها. التسلسل الهرمي ضمن المجموعة هو مجرد الانعكاس الداخلي لدرجة التقدم الروحي الداخلي لكل مريد، تقدماً الذي مراحلها قد تتباين في العدد في الطرق الصوفية المختلفة (40).

يعد الولي العارف بالله الإمام عبد الوهاب الشعراي (41) أحد أكثر رجال التصوف في مصر في بدايات العصر العثماني أي القرن السادس عشر الميلادي، والذي سعى لإيجاد صيغة من التوافقية بين الفقه والتصوف، و أكد على ذلك في كافة مؤلفاته على العموم (42)، إذ ذكر في كتابه "الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية" ما نصه "اعلم يا أخي ان الحقيقة

<sup>38</sup> المصدر نفسه، ص 91.

<sup>39</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة 1992، ص 188.

<sup>40</sup> Rachida Chih, *Sufism in Ottoman Egypt: Circulation, Renewal and Authority in the Seventeen and Eighteen Centuries*, Routledge Publications, New York 2019, P.51.

<sup>41</sup> هو الإمام عبد الوهاب الشعراي، انتهى نسبه إلى محمد بن الحنفية ابن الإمام علي ابن أبي طالب (كرم الله وجهه)، اصله من قبلية زغلة في المغرب، ولد عام 898 هـ، في قلقشندة في مصر، درس الفقه في جامع أبي العباس العمري، ثم سلك في التصوف على يد العديد من الشيوخ من أهمهم الشيخ علي الخواص ونور الدين المرصفي ومحمد الشناوي، له 117 مؤلف، دس عليه بعض حساده في كتبه فأهاجوا عليه الأزهر، فلما أظهر لهم الحقيقة توقفت الفتنة، توفي عام 973 هـ - 1565 م، ينظر، عبد الوهاب الشعراي، إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين، تحقيق مهدي اسعد عرار، دار الكتب العلمية، بيروت 2007، ص 12-31.

<sup>42</sup> محمد صبري الدالي، المصدر السابق، ص 361.

(علوم المعرفة الإلهية: أي الطريقة) هي الإخبار عن الأمور على ما هي عليه في نفسها، وذلك هو عين الشريعة المطهرة، فلم ير الخلاف بين الشريعة والحقيقة إلا من لم يحقق النظر، فلما كان أئمة الحقيقة عالمين بالشريعة، كذلك كان أئمة الشريعة عالمين بالحقيقة. وقالوا: من نظر إلى كون الحقيقة تخالف الشريعة، أو عكسه فهو أعور، فإن الشريعة هي أساس علم الحقيقة التي يترقى السالك منها إلى درج الحقيقة، فلا يصح طلب الحقيقة من غير معرفة الشريعة، لأنه لا يدخل إلى الحقيقة إلا من باب الشريعة... وإن الناس لو اتمعنوا النظر في أحوال الصوفية لوجدوها مشيدة بالكتاب والسنة، كمذاهب المجتهدين على حد سواء، فإن الشريعة تشهد لكل من المذهبيين، وما ثم تمييز بين الطريقتين إلا بالمقاصد فقط، وذلك لأن الفقيه يطلب بعلمه وعمله الثواب من الله عز وجل في دخول الجنة، والتمتع بما فيها، من مأكّل، ومشرب، وحمور، وقصور، وغير ذلك. والصوفي يطلب بعلمه وعمله الثواب أيضاً، ولكن إظهاراً للفاقة والحاجة والفقر، وإظهاراً لمنة الله تعالى وفضله عليه، ولا يرى أنه يستحق على عمله ثواباً، لشهوده أن عمله كله خلق الله عز وجل... ومن الصوفية من يطلب من جميع أعماله مجالسة الحق تعالى فيها في الدنيا والآخرة، ومنهم من يستحي أن يطلب ذلك من ربه عز وجل، ويقول: أنزه ذلك الجمال البديع عن رؤية مثلي، أو عن مجالستي له... من ظن أن الحقيقة تخالف الشريعة أو عكسه فقد جهل، لأنه ليس عند المحققين شريعة تخالف حقيقة أبدأ، حتى قالوا: شريعة بلا حقيقة عاطلة، وحقيقة بلا شريعة باطلة، خلاف ما هو عن القاصرين من الفقهاء والفقراء، فإذا تناظروا لا يزدادون بذلك إلا تنافراً، بخلاف الكاملين قرأ أحدهم قول الآخر، إذ لا يتم كمال العلم إلا بمراعاة قواعد الطريقتين وحصول شرائطهما. فإذا رأينا إنساناً يصلي أسقطنا عنه الوجوب بفعلها ظاهراً، ولو أنه كان غير مفر بوجوبها عليه لكفرناه ولم يسقط عقابها عنه لا في الحقيقة، ولا في الشريعة. فما حكمنا بإسقاط الوجوب عنه بفعلها إلا لحملنا له على أنه مفر بوجوبها. فلو قال لنا: أنا لا اعتقد وجوبها علي، حكمنا بارتداده، ولم نسقطها نه، لتوقف نية طهارتها على الإسلام. ويظهر لك ذلك أيضاً في حكم الحاكم، فإذا حكم ببينة عادلة، نفذ حكمه ظاهراً وباطناً، في الدنيا والآخرة، وإذا حكم ببينة زور في نفس الأمر لم يعلم بها، نفذ حكمه ظاهراً فقط، يعني: في الدنيا، ولو علم بان البينة كاذبة، لم ينفذ حكمه لا ظاهراً ولا باطناً، لأنها كالعدم" (43).

ومما بينه في آداب المريدي قوله "اعلم يا أخي أن جميع آداب المريدي يعسر حصرها وضبطها في عبارة على وجه التفصيل، ولكن نذكر لك طرفاً صالحاً من ذلك على أن وظيفة الشيخ أنه يستخرج للمريدي ما هو كامن فيه لا غير، فإن الله تعالى قد بث في كل روح جميع ما يتعلق بصاحبها من المحامد والمذام، فما أمره شيخه أو نهاه عنه إلا وهو كامن في روحه، وليس مع الشيخ شيء يعطيه للمريدي خارجاً عنه، فإن حكم المريدي في ابتداء أمره، حكم النواة الكامن فيها النخلة التي هي هنا عبارة عن الصدق في الطريق أو الكذب فيها، فإن كان صادقاً تفرعت ثمرة صدقه وأثمرت حتى تشرف على جميع جيرانه ويأكلون من ثمرتها، بل تنتشر إلى جميع أهل بلده أو إقليمه وينتفعون بها، ويظهر صدقه وصلاحه للخاص والعام، حتى لو أنه أراد كتمان صلاحه عنهم لا يقدر، وإن كان المريدي كاذباً في محبته للطريق تفرعت شجرة كذبه ونصبه ونفاقه حتى تشرف على جميع جيرانه وبلده وإقليمه ويظهر لهم كذبه ونفاقه وريأؤه، حتى لو أراد أن يتظاهر بصورة الصادق لا يقدر على ذلك، لأن أفعاله الرذيلة تكذب دعواه، ويفتضح وترفضه الطريق، حتى تلحقه بفسقه العوام عقوبة له على كذبه على طريق الله عز وجل، وربما أعطاه الله تعالى رائحة من الصدق ثم سلبها منه، فقال الناس كلهم فيه: فلان سلب عن طريق الفقراء،

<sup>43</sup> ينظر، عبد الوهاب الشعراني، الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية، تحقيق عبد الهادي محمد الخرسه، دار البيروتي، دمشق 2010، ص 153-156.

وما بقي فيه رائحة من روائح أهلها، فيصير يرخي له عذبة ويربي له شعره، ويلبس الصوف، ويتحلى بجلاس الفقراء والناس يرونه عرباناً من الأدب لا يكاد سلبه يخفى على أحد من الناس" (44).

يعد المتصوفة أصحاب السجاجيد اول أنواع المتصوفة في مصر إبان العصر العثماني الذين مثلوا شريحة غنية من الناحية الاقتصادية ولها تميزها الاجتماعي بين متصوفة مصر في ذلك الوقت، بل على مستوى الشعب المصري كله، لا سيما انهم تمتعوا بمكانة اجتماعية رفيعة وتقدير كبير نظرا لأنسابهم ووضعهم الصوفي / الديني، ولذلك عندما استولى السلطان سليم الأول على مصر عام 1517، فانه أولى عنايته لأصحاب السجاجيد وهيء لهم موارد رزق سخية ودائمة، ومن المعلوم لدى الباحثين ان عدد السجاجيد في مصر هي: السجادة (أي الطريقة) البكرية نسبة لابي بكر الصديق (رضي الله عنه)، السجادة الساداتية نسبة لعلي بن أبي طالب (كرم لله وجهه)، السجادة العنانية نسبة لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) والسجادة الخضيرية نسبة لزبير بن العوام، وقد برزت السجادة البكرية كونها جماعة صوفية ذات نفوذ كبير في العصر العثماني ولها مكانتها المحترمة، وصار شيخهم أبو الحسن البكري (ت 1545 م) شخصية صوفية لها مكانتها البارزة في المجتمع المصري، وقد ابرز البكريون شأنه في كتبهم ورسائلهم، وحكوا عنه الكرامات واجتهاده وعدوه مؤسس مجددتهم الأدبي والصوفي والاجتماعي، وعند وفاته خلفه في مشيخة السجادة ابنه محمد البكري وعند وفاته سنة 1585 خلفه أبو السرور بن محمد البكري الذي توفي عام 1598 م، وجاء بعده زين العابدين بن محمد البكري الذي توفي عام 1604 م ثم أبو المواهب بن محمد البكري الذي توفي عام 1628 م، ومع ذلك فان المكانة الاجتماعية والاقتصادية التي حققتها البكرية منذ ابتداء حكم العثمانيين لمصر، أدت دورا محوريا في علو مكانتهم في ميدان التصوف على الساحة المصرية، وبالرغم من انهم لم يحظوا بانتشار كبير بين الفئات الميسورة والمثقفة في القرن الثامن عشر الميلادي، فقد كانت لهم صلات قوية مع بعض الطرق الصوفية مثل الطريقة المولوية التي تأثرت البكرية بها بشكل كبير في جانبها الروحي، كما كانت لهم صلات مع الأشراف، إضافة إلى ميل بعضهم للدراويش ومن بينهم احمد بن محمد البكري (ت 187 م) شيخ السجادة البكرية في ذلك الوقت (45).

أما عدد الطرق الصوفية فقد بلغ عددها ثمانون طريقة من بينها الرفاعية والقادرية والأحمدية والدسوقية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية والمدينية والفردوسية والخلوتية والهمدانية والطبخدرية والشطارية والخضرية والعزيبية والسعودية والمصافحة والطيلسان والرداء والمآزر وإرخاء العذبة، وان الاختلافات بين هذه الطرق هي محدودة لا تكاد تذكر، أولها ما يتعلق بالزي والثاني بطريقة الذكر والعبادة، فأما ما يتعلق بالزي فان الطريقة الأحمدية عرفت بالزي الأحمر والدسوقية بالزي الأخضر والرفاعية بالزي الأسمر، وعرفت الطريقة القادرية بالزي الأخضر كذلك السعودية، ويبدو ان أكثر ما يميز الطرق الصوفية هي الأوراد اذ ان لكل طريقة ورد او حزب ألفه شيخها وحرص عليه اتباعه في حياته وبعد مماته ويقومون بترديده في الأوقات التي رسمها لهم ويقومون بتلاوته جماعة دون ان يتغيب عن تلاوته أحدا منهم، لان مدد الشيخ في ورده كما يقول الإمام الشعراي (رضي الله عنه (46).

44 عبد الوهاب الشعراي، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق وتقديم طه عبد الباقي سرور ومحمد عبد الشافي، مكتبة المعارف، بيروت 1988، ص 51-52.

45 محمد صبري الدالي، المصدر السابق، ص 82-85.

46 توفيق الطويل، المصدر السابق، ص 79-80.

وبالطبع فانه من غير الممكن تناول كل طريقة من هذه الطرق على حدة لكثرة عددها كما تقدم ذكره، فانه لا بد من القول انه في مطلع مدة البحث فان الطريقة الشاذلية عدت صاحبة القدم فكريا، وأكثرها أرسقراطية، لا سيما ان الفقهاء ابدوا توافقا معها، وحازت قبولا شعبيا واسعا، وأثمرت العديد من الشعراء النابهين والكتاب الذين لقيت مؤلفاتهم صدى كبير بين عموم الطبقة المتعلمة من المتصوفة، وبسبب سعيها للسمو بالروح لم تتخذ زياً محدداً ولم تنشئ صفة التي هي أماكن لاعتزال المتصوفة، ووقفت بالضد من الاستجداء والانصراف عن الحياة بهدف التأمل الروحي، واتخذت موقفاً حازماً مؤداه ضرورة ان يكون من انضوى تحت لوائها ذا دور فاعل من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، ومن اهم مظاهرها الاحتفال بالمولد عند ضريح مؤسسها، إلا انه من المعلوم بصورة دامغة ان الطريقة الأحمدية امتازت بكثرة عدد اتباعها ومراكزها وأفرعها عن سواها من الطرق، فرغم ان الأحمدية عدت ادنى منزلة ثقافيا من الشاذلية، غير أنها كانت ذات ثقل شعبي اكبر بكثير ونفوذ اقوى اجتماعيا، وقد وصف الشيخ علي بن محمد الشناوي (ت 1772م) بانه رئيس مشايخ الأحمدية في وقته، وأورد المؤرخ المصري علي مبارك ان عدد افرع الطريقة في مصر قد بلغ 16 فرعا وهو ما فاق أي من الطرق الصوفية الأخرى عددا، أما الطريقة الدسوقية او البرهامية، فإنها كحال الأحمدية امتازت بطابعها المصري الخاص اذ كانت مصر مكان نشوئها ومركزها، ولم تحظ بالعديد من الاتباع في أي بلد آخر، وارتبطت فعليا بالأحمدية التي تقدمتها قليلا وذات الشعبية الأكبر، وتميز زي البرهامية باللون الأخضر، ولم يكن يفصل بين إقامة مولد السيد إبراهيم الدسوقي (رضي الله عنه) والسيد احمد البدوي (رضي الله عنه) سوى أسبوع واحد، في حين اعتاد اتباع الطريقة الرفاعية على تعريض انفسهم للتعذيب من خلال مداومتهم على طعن وحرق أجسادهم من دون ان يمسهم أذى كما اشتهر صبيتهم في التعامل مع الأفاعي، والسعدية هي أحد افرع الرفاعية ومؤسسها الشيخ الشامي سعد الدين الجياوي، وأيضا الطريقة المولوية التركية التي عرف اتباعها بدورانهم على قدمهم اليمنى اثناء تأديتهم للدعاء، ومؤسسها الصوفي الشهير جلال الدين الرومي، في حان كانت البيومية هي أحد افرع الأحمدية، وأسسها علي بن حجازي البيومي، وكان معظم مريديه من حي الحسين في القاهرة الذي كان مركزا له، وكان لباسه طول العام رداءً أبيضاً وطاقيه بيضاء تعلوها عباءة حمراء، لكون اللون الأحمر هو لون طريقته الأم، وعكف على إقامة حلقات الذكر بدون انقطاع في مسجد الظاهر الذي كان يقع خارج حي الحسين، وعرف بمهابته حتى قام مجرمين بالتوبة على يديه الذي كان يقيدهم في أعمدة مسجد الظاهر، ثم يسير بهم في الطرقات وحولهم ياقات وجعلهم يمشون بأسلوب عسكري حوله وهو راكب بغلته حاملين الأسلحة والعصي للدفاع عنه، وتوفي عام 1769 م، ولم تكن الخلوتية سوى طريقة تركية إلا انه أصبح لها شأن مهم جداً في مصر، وتطلبت أسلوبا تعليميا امتاز بالصرامة اذ يشرع السالك في الطريقة بتعلم أسماء الله الحسنى تدريجيا وكل اسم يشير إلى مرحلة روحية اعلى إضافة إلى الاعتزال في خلوة ولهذا سميت بهذا الاسم، ودراسة أدب المتصوف عظيم الشأن محيي الدين بن عربي والشاعر الصوفي عمر بن الفارض، ومن المع شيوخها الشيخ إبراهيم جولشيني ومحمد الدمرداشي المحمدي وشاهين الجركسي والشيخ كريم الدين محمد بن احمد الخلوتي، على ان ابرز اتباعها هو الشيخ محمد بن سالم الحفني الذي أصبح شيخا للأزهر الشريف 1757 - 1767 م والذي استطاع نشر الطريقة بنجاح باهر وأصبح له مرديدن في قرى عديدة وحظي بنفوذ كبير لدى الحكام، واهم خلفائه هو الشيخ احمد الدردير 1786م والشيخ محمود الكردي (ت 1870 م)، ومن بين هذه الطرق الوفاية ويرجع نسبها إلى علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه)، وكما ان البكرية القيت على عاتقهم مسؤولية إقامة المولد النبوي الشريف، فان الوفاية اختصوا بالإشراف على إقامة مولد الإمام الحسين (رضي الله عنه) وإدارة مسجد الحسين في القاهرة، وكلاهما حظيا باعتراف رسمي من إسطنبول، واهم شيوخها هو الشيخ محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن، وقد نقل عنه قوله ان

الاحتلال الفرنسي لمصر تم بسبب سياسات المماليك الظالمة<sup>(47)</sup>. وبما انه تم تناول مؤلفات ومنهج الإمام عبد الوهاب الشعراي ممثلاً للتصوف في القرن السادس عشر، فانه سيتم بحث ثلاثة مؤلفات لشيخو التصوف في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أولهما "السير والسلوك إلى ملك الملوك" لمؤلفه الشيخ قاسم الخاني (ت 1697 م) واصله من حلب في بلاد الشام. هذا النص كان ناجحاً جداً في مصر بين شيوخ الطريقة الخلوتية، ومن ضمنهم اثنان من المريدين للشيخ الحفني، وهما الشيخ محمد المنير السمودي (ت 1785 م) والشيخ احمد الدردير (ت 1786 م) اللذين كلاهما اقتبسا منه واستعملاه كنقطة مرجعية، الأول في مؤلفه "تهافت السالكين ودلائل السائرين لمنهج المقربين"، والثاني في كتابه "تهافت الإخوان في آداب الطريق"، هذه النصوص الثلاثة قرأت ونقلت واستنسخت لأجيال من المتصوفة، وتم تداولها في شكل مخطوطات ومن ثم من بين أولى النصوص التي استفادت من فجر الطباعة بالعربية، بالإضافة، ثلاثتها تم إعادة إصدارها حديثاً. السير والسلوك يبدو انه تم طباعته لأول مرة في فاس في 1897 - 1898، نجاحه في البيئة الصوفية المرتبطة بالأزهر والخلوتية استمر بلا هوادة عبر القرن التاسع عشر: المؤلف الذي أعده أحد شيوخ الخلوتية المنحدر من صعيد مصر وهو الشيخ علي عبد الحافظ (ت 1886) المعنون "هداية الراغبين في السير والسلوك إلى ملك الملوك رب العالمين" هو ملخص للسير والسلوك وكتاب الدردير تهافت الإخوان: نفس المؤلف أنتج نسخة مكثفة أخرى من هذين النصين في مؤلفه "لقطات العجلان وتهافت الإخوان" الذي امتلكت مكتبة الأزهر أكثر من عشرين نسخة منه. وشيخ خلوتي آخر من صعيد مصر أيضاً هو الشيخ احمد الشرفاوي (ت 1899 م) اكد في كتابه "شمس التحقيق وعروة أهل التوفيق" ان كتاب السير والسلوك قد أوصي به من قبل الشيخ احمد الدردير، وبقوة نصح به مريديه بقراءته التداول لكتاب الخاني لم يكن مقتصرًا على مصر، بل غالباً ما اقتبس من قبل شيوخ تجديد التصوف في أفريقيا، مثلاً، من قبل محمد السنوسي (ت 1859 م) مؤسس الطريقة السنوسية، في كتابه "بغية المقتصد" ومن قبل محمد المجذوب (ت 1820) وهو مريد سوداني للشيخ احمد بن ادريس، الذي كتابه "رسالة السلوك" هو بشكل كبير إعادة إنتاج لنص الخاني. الكتابان الآخران، تهافت السالكين للسمودي وتهافت الإخوان للدردير كتبا لمريدي الخلوتية في مصر بناءً على طلب شيخ هذه الطريقة الشيخ الحفني، وجرى تداولهما على الأغلب بين المنتسبين له. أول طبعة بواسطة الطباعة الحجرية لتهافت السالكين ظهرت في عام 1870 م ثم طبعت في عام 1888 م، والنسخة المطبوعة في مكتبة الأزهر تعود لعام 1918، تهافت الإخوان الهم الشيخ مصطفى البكري في كتابه "بلاغة المراد" وهو شعر وعظي وتعليمي في الطريقة الصوفية والذي تم أخذه واتباعه من قبل كل الخلوتية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وكما لاحظ المؤرخ المصري الجبرتي فانه بالرغم من ان الحفني كان المروج للخلوتية في مصر، فان مصطفى البكري هو من اضفى الطابع الرسمي على قواعد ممارساتها. تهافت الإخوان طبع لأول مرة في القاهرة عام 1864 م، ثم في عام 1890 م ثم في عام 1913 وتم إعادة إصداره باستمرار منذ ذلك الوقت. مع ذلك، الاختلافات في معالجة الفكرة الرئيسية المتعلقة بتعليم المريدين تظهر بين هؤلاء المؤلفين الثلاثة، فبينما الخاني ركز على الرحلة الروحية باتجاه الله تعالى والتي وصفها بموجب مخطط معقد جداً للحالة النفسية - الروحية، فان كتابا السمودي والدردير نزلت بدلا من ذلك لأخذ شكل توجيه عملي، مركزين في الغالب حصريا على القواعد الحاكمة للتلاوة لأوراد الخلوتية الخاصة، الممارسة الجماعية للذكر، والسلوك الاجتماعي للمريد، (تجاه شيخه وأصحابه، وفي كل الظروف المحتملة) هذه الاختلافات في المقاربة نبعت من مرحلة تاريخية محددة، البيئة التعليمية، التراث الروحي واحتراف المهنة

<sup>47</sup> ميكل ونتر، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2001، ص 212-230.

التي اختص بها كل مؤلف. السمنودي والدردير كانا كلامهما (خليفة) الحفني واستلما (الإذن) منه لنقل الذكر وضم مريدين جدد، وعبر تدريسهما وكتابتاهما ساهما في اتساع دائرة المنتسبين للخلوتية، كما ان السمنودي شغل منصب شيخ القراء والمحدثين في الأزهر والدردير كان مفتي المذهب المالكي وشيخ طلبة الصعيد فيه (48).

ولا يوجد انتساب صوفي محدد معروف للخاني، فاصله كما تقدم من حلب المدينة الكبرى لبلاد الشام وملتقى الطرق التجارية المهم، هو أولا سافر عبر الدولة العثمانية بأسرها لأعماله التجارية، لكنه تخلى عن ذلك بعد سنوات قليلة وكرس نفسه للتعليم وأصبح مفتيا للمذهب الحنفي في المدرسة الخلوية المهمة. القليل معروف عن تربيته الصوفي فيما عدا انضمامه للطريقة بواسطة الشيخ احمد الحمصي. الخاني الذي وصف انضمامه اليها نتيجة تقييم شخصي، لم يتحدث عن شيخه الذي لم تيسر للباحثين معلومات عنه، ولا ذكر انتسابه لأية طريقة صوفية محددة. اذ يبدو انه نفسه لم يجد أي طريقة صوفية محددة، ولا حتى قيادته لمجموعة من المريدين وبحسب ما أورده شخصيا، فانه حينما عاد إلى حلب شعر بالحاجة للانعزال بنفسه عن الناس، ترك وهجر التجارة واتباع طريق التواضع والفقر، المرء قد يستنتج من ذلك انه خضع لنوع من الأزمة الروحية: اذ يقول انه بعدها غير أصحابه بما وصفه "غيرت الجلاس والحلاس والأنفاس. وحارب نفسه الجسدية وعدائها وجرب الجوع والسهر لسبعة أعوام تحت توجيه شيخه. ولعامين كان يأكل مرة واحدة كل ستة عشر ساعة، حفنة من الدقيق الذي صنع منه حساءٌ وحلاه بملعقة من العسل، واستمر يأكل قليلا إثر ذلك، متبعا في ذلك مشورة شيخه. عند نهاية هذه السنوات السبع الطويلة مما وصفه بالقتال، فان الله تعالى جلب إياها فيه لدراسة العلم الظاهري، والذي فعلته لعامين مع شيوخ كبار قبل ان أقوم بتعليمه بدوري. (وهي قصة مشابهة جدا للشيخ الدردير، الذي قال كذلك انه قضى سبع سنوات في صومعة متناولا الزبيب فقط) في بحثه، الخاني طور أنموذجا للتقدم الروحي من سبع مراحل، مقسمة لسبعة درجات عبرها بإمكان المرء ان يتحرك نحو كمال الروح، هذا النموذج سيتم الأخذ به من قبل الخلوتية في مصر. مفهوم التقدم عبر الدرجات السبعة لم يكن جديداً، اذ كان موجوداً في الخلوتية منذ تأسيسها، وتم وصفه من قبل يحيى البكوي في مؤلفه "شرح مراتب أسرار القلوب"، وإمكاننا ان نجد ذلك في الطرق الصوفية الأخرى مثل، أنموذجا البيومية والقادرية. مع ذلك، العالم الصوفي المغربي أبو سالم العياشي، الذي سافر إلى مصر في منتصف القرن السابع عشر، لاحظ ان الخلوتية المتفرعة من الدرداشية تبتدئ بالأسماء السبعة، لكن تتلو الأسماء الإلهية العشرة خلال الذكر، الطريقة الخلوتية تأسست على ذكر لا إله إلا الله بموجب طريقة محددة، ثم لفظ الجلالة، ثم بقية الأسماء العشرة بالترتيب الآتي: هو (الله)، الحق، الحي، القهار، الوهاب، الفتاح، الواحد، الصمد، القيوم. كتاب السير والسلوك قدم شرحا محددًا وتفسيريا مفصلا لنموذج التقدم المبدئي، ومقاماته وأحواله (لا بد من التأكيد هنا انه تم الالتزام بالمصطلحات الصوفية من دون تغيير: الباحث)، مصحوبة بوصف دقيق للتأثيرات النفسية – الروحية من التدريبات الصارمة في طهارة وتنقية روحية وقلبية خلال الملاذ المنعزل. المؤلف اظهر استيعاب بالغ الدقة لنفسية المبتدئين، التي تجعل من اليسير فهم النفوذ العظيم الذي شكله بحثه على العلماء المتصوفة (والمعنيين بعلم المنطق الإسلامي). في الفصل الثالث من كتابه، المعنون "في بيان الحجب التي بين الله والعبد"، الخاني يذكر قرائه انه من المستحيل للسالك ان يعرف الله تعالى في جوهره لأولئك من مخلوقاته الذين وصلوا المرحلة النهائية للرحلة الروحية، الله تعالى يجلي نفسه فقط وراء حجاب أسمائه وصفاته (مقام تجلي الأسماء وتجلي الصفات). المؤلف طور تعليمه على أساس الحديث النبوي والذي بموجبه يوجد سبعين حجاب من الظلمة والنور بين الخالق وعبده (ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة: الحديث النبوي

<sup>48</sup> Rachida Chih, op. cit., P.52-54.

الشريف)، مع طريقة احتوت على استخدام التلاوة للأسماء الإلهية، فإن هذه الحجب تتمزق بعيدا تدريجيا، في سبعة مراحل مع عشرة حجب لكل مرحلة. كل حجاب هو نسيج أدق من الواحد السابق، والشيء نفسه هو صحيح بالنسبة للروح كما تقوم بتنقية نفسها. لرفع هذه الحجب المرء يجب ان يقوم برحلة داخلية تجاه الأعضاء السبعة الدقيقة او مراكز المخلوق البشري الواحد (لطيفة، لطيفة): ذلك هو السبب للحكمة الصوفية اعرف نفسك وسوف تعرف الله: هذه المراكز البالغة الدقة: الحقيقة الداخلية للروح، القلب، الروح، السر، سر الأسرار، الخفي، الاخفى. انه على هذه القواعد التي الخاني ابتكر التقدم الروحي في سبعة مراحل، مطابقة للأحوال السبعة للروح، المراكز السبعة الدقيقة لرجل وسبعة أعضاء متجانسة. المبتدئ يتبعها حتى آخر مرحلة التي هي المشاهدة، الرؤية المباشرة للتجليات الإلهية، الرؤية ليست عبر العيون لكن مع القلب، لكل مرحلة متجانسة تضرع وابتهاال لواحد من أسماء لله الحسنى، وهذه الأسماء السبعة كذلك تمثل الأحوال السبعة للروح. عند المرحلة الأولى النفس هي مبهمة وغامضة، طبيعتها هي حيوانية، انها تعود باتجاه الطمع والشهوة، وتحض على الشر (النفس الأمارة بالسوء) وأفعالها عند مستوى الصدر والكلمة التي تجانسها هي عالم الشهادة. عند هذه المحطة النفس الأدنى تسافر باتجاه الله (سيرها إلى الله)، وذكرها لا إله إلا الله، ميدان واختصاص أفعالها هو القانون المكشوف (الشريعة)، وصفاتها الجهل، الجشع، الطمع، الحيرة، البذاءة، الحقد، التدخل في شؤون الناس الآخرين، فعل الأذى. عند المرحلة الثانية، النفس تنسب لها اللوم (النفس اللوامة) ورحلتها إلى الله هو مطابق للعالم الوسيط ووعائها المادي هو القلب وشرطها الروحي هو الحب (المحبة)، ميدان أنشطتها الابتداء بالطريقة، صفاتها اللوم، الاستبطان، تمجيد الذات، التكلم في عيوب الآخرين، النفاق الخفي، وطريقها إلى الله بالراحة هي بالراحة إلى الله، وكلمتها هي عالم الروح، وعائها المادي او المكان الذي تتجلى نفسها فيه هو الروح وحالها الروحي هو العشق لله، الميدان الذي فيه أفعالها هو التكهن ويجب قول هو (الله). عند ممارسة الذكر في حضور الشيخ غالبا ان أمكن. بعد محن المراحل الأولى الثلاثة، التي هي الأكثر صعوبة وخطورة لان اليقظة الدائمة مطلوبة من المبتدئ (وموجهة)، وإذا لم تسقط عائدة إلى الظلمة، فان الروح تدخل إلى النور، المرحلة الرابعة مطابقة لبداية حد الكمال. خلال هذه المرحلة، وأولئك الذين يتبعون، المسافر لديه حاجة قليلة لشيخه (لا يحتاج في السلك إلى المسلك إلا القليل)، لله الذي أنار مصباح حد الكمال في قلبه وهو الآن أحد أناس الطريقة، وهنا يرتدي عباءتها لكي يعبر إلى مرحلة التمكين. الروح هي أخيرا الان في سلام، سفرها إلى الله ينبع من الحقيقة المحمدية، مركزها المادي هو السر، حالها الروحي إخلاص الصفاء، حقل أنشطتها (بدء أسرار الشريعة)، صفاتها الكرم، الثقة، السماحة، التقوى، الشكر، الرضا بالأمر الإلهي (القضاء) والصبر في وجه المحن، هذه هي مرحلة التمكين وعين اليقين والكلمة التي يجب التحدث عندها (الحق). المرحلة الخامسة هي الروح الراضية وسفرها (في الله)، وتنشأ في اللاهوت (عالم الأسماء والصفات الإلهية) منزلها المادي هو (سر الأسرار)، حالها الروحي هو (الفناء)، صفاتها التخلي عن كل شيء دون الله، الإخلاص بالورع، وامتلاك قلب رضي بكل ما قد يأتي للكون من دون الارتجاف او الدفع بعيدا لما هو غير سار، ومنذ ان الروح قد استوعبت تماما في التأمل للجمال المطلق: انه خلال هذا الجزء من التقدم انه ملائم على الخصوص للمريد ان يتراجع إلى صومعة (خلوة). المسافر تجاه الله يجب ان يقول (حي) في هذه المرحلة. عند المرحلة السادسة الروح تصبح (النفس المرضية)، انها تسافر (عن الله)، وانها تنشأ في (عالم الشهادة)، منزلها المادي هو (الخفي)، حالها (الحيرة)، وميدانها مجدداً القانون المكشوف (الشريعة). المسافر على الطريقة يكون قد ادرك الحديث النبوي (الحديث القدسي) والله يكون قد أصبح سمعه الذي يسمع به، بصره الذي يرى عبره، يده التي يمسك بها وقدمه التي يمشي من خلالها، عند هذه المرحلة، فان الروح تعود إلى عالم الحواس لكي تأخذ دورها في توجيه الرجال من الظلمة

إلى النور، الروح ترتفع إلى مستوى (الخليفة) الذكر لهذه الدرجة هو القيوم، المرحلة السابعة (النفس الكاملة) سفرها (بالله) منزلها المادي (الآخى) حالتها (البقاء في الله) ويقال هنا (القهار)، والروح تكون قد وصلت إلى ميدان الكمال، وقبل الكتابة في المراحل السبعة المار ذكرها، فان الخاني افرد فصلا بعنوان "في ذم الدنيا ولذاتها وبيان حقيقتها" ليشرح على ماذا احتوت الطريقة إلى الله وما هي (الأركان)، التي تدعمها. وفي فصله الثاني "في حديثي على السلوك في حديثي على الطريق وبيان فضائله"، فانه منذ البداية حذر القارئ من الصعوبات التي سيواجهها مخيرا إياه ان السفر على هذه الطريقة ليس في إدراك كل أحد. الطريقة تعني (رفض الدنيا) وتنقية نفس المرء الدنيا حتى تكشف طبيعتها الحقيقية (49).

أحب العثمانيون التصوف ومالوا إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايته، وان كان الولاة العثمانيون قد قربوا العلماء وجعلوهم محط ثقتهم فيما يتعلق ببعض الشؤون المتصلة بالشعب لكونهم اغزر علما من أصحاب الطرق الصوفية حسب قناعتهم، ومما هو معروف عن الجنود العثمانيين شجاعتهم في سوح القتال إلا ان تأثير الأولياء الروحي كان كبيرا عليهم، وعلى سبيل المثال فان الشيخ إبراهيم الكشني العجمي كان الجنود يتهافتون عليه وكان اعتقادهم فيه كبيرا، حتى ان الدولة خشيت من سعة سلطانه فقامت بنفيه إلى بلاد الروم مدة من الزمن، كما روى المؤرخون ان الشيخ شاهين الدمرداش كان نواب مصر وأمرائها ذوي اعتقاد كبير في ولايته حتى انهم كانوا يلتمسون تقبيل يده فلم يكن يلتفت اليهم ولا يعبأ بهم، ومما لا شك فيه ان الوجود العثماني على هرم السلطة في مصر قد حفز العديد من الدراويش الأتراك على الهجرة إليها واتخاذها موطنًا لهم، ورغم انه ليس من المعروف بشكل دقيق تأريخ تكون الطرق الصوفية التي انحدرت من أصول تركية في مصر، ولكن بالإمكان القول ان الحكم العثماني في مصر لم يكن معدوم الأثر في التصوف وطرقه (50).

علاوة على وجود عوامل أخرى ساهمت بدورها في انتشار الطرق الصوفية في مصر في ذلك العصر وهي: إدراك الطرق الصوفية للطبيعة المزدوجة للتدين الشعبي إذ انها من جهة حافظت على الصلة التي ربطتها بنظام الحكم والذي أدى بدوره إلى ازدهارها الشديد الاتساع، ومن جهة أظهرت تعاطفها من خلال اهتمامها بمصالح الفقراء في مواجهة قهر السلطة، زيادة اهتمام الطرق الصوفية بالجانب العملي للتصوف بشكل أكبر من الخوض في مسائل النظرية الصوفية والذي كان له شأن عظيم في انتشارها كإحدى صور التدين الشعبي في المجتمع المصري، الدور المؤثر الذي لعبته العائلات الكبيرة ذات النفوذ الديني في توريث الأجيال التالية الانتماء إلى ذات الطرق الصوفية التي انتسب جيل الإباء إليها فيصبح الابن المرید امتداداً لأبيه المرید (51).

<sup>49</sup> Rachida Chih, op. cit., P.52-57.

<sup>50</sup> عبد الحكيم خليل سيد احمد، المصدر السابق، ص 50-51.

<sup>51</sup> عبد الحكيم خليل سيد احمد، المصدر السابق، ص 50-51.

يمكننا بعد ذلك الخروج بالاستنتاجات التالية:

- 1- التصوف هو نزوع وفق مبدأ معين للزهد في الحياة ومجاهدة النفس ورغباتها والتمسك بالمنهج القرآني، وهي نشأت منذ القرن الثاني الهجري، ثم تطورت مفاهيمه تدريجياً في القرون التالية، إلا أن ثوابته الجوهرية ظلت كما هي من دون تغيير.
- 2- أسس الطرق الصوفية هي الشيخ وهو الموجه والركن الحيوي والذي لا غنى عنه في الطريقة، والذي ترقى في المقامات والأحوال الصوفية، ومن اللازم ان يكون الشيخ ملماً بعلوم الشريعة (الفقه) متحلياً بالأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة ورعاً وتقياً لا يجعل للدنيا النصيب الأكبر في قلبه، والمريد وهو بمثابة الطالب للشيخ الذي يتلقى منه العون والنصح والإرشاد والتعليم حتى يسلك في الطريقة ضمن سياق سليم يتحقق فيه مرضاة الله تعالى ويتجنب مواطن الزلل والهبوات.
- 3- يعد ذو النون المصري (ت 245 هـ / 859 م) هو أول من أرسى دعائم التصوف الإسلامي في مصر، واستمد التصوف من بعده منهجاً ذو طبيعة فردية خاصة، حتى العصر الأيوبي عندما أنشئ السلطان صلاح الدين الأيوبي خانقاه سعيد السعداء عام 569 هـ / 1173 م كمستقر للصوفية فأصبح لهم وجود اجتماعي له مكانته واستقلالته من خلال حظوته لدى الدولة والأوقاف التي خصصت له، ثم بدأت الطرق الصوفية القادمة من العراق والمغرب بالانتشار في مصر بشكل واسع واهمها الرفاعية، القادرية، الأحمدية، والشاذلية، وشهد التصوف طفرة كبيرة من ناحية العدد المنتمين له وطبيعة الفكر المرتبط به في عصر المماليك 1250 م – 1517 م اذ وقر المماليك شيوخه وزاد اعتقادهم بهم.
- 4- يعد الإمام عبد الوهاب الشعراني (ت 1565 م) أبرز رجال التصوف في مصر في أوائل العصر العثماني أي القرن السادس عشر الميلادي والذي جسّد منهجه الارتباط بين علم الشريعة (الفقه) وعلم الطريقة (الحقيقة) فلا انفصال بينهما في مفهومه.
- 5- يلاحظ ان الطرق الصوفية الوافدة من خارج مصر: العراق، المغرب، بلاد الشام، تركيا كانت الأكثر انتشاراً في مصر.
- 6- رغم ان الطريقة الشاذلية كانت الأقدم فكراً، غير ان الطريقة الأحمدية كانت الأكثر انتشاراً وشعبية وحضوراً حتى أصبح لها 16 فرعا في مختلف أنحاء مصر.
- 7- كانت الطريقة الدسوقية هي الطريقة المصرية الوحيدة إلا انها كانت بعد الأحمدية من جهة التأثير مرتبطة بها.
- 8- برز الشيخ قاسم الخاني (ت 1697م)، الشيخ محمد المنير السمودي (ت 1785 م) والشيخ احمد الدردير (ت 1786 م) كأبرز رجال الطرق الصوفية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي من خلال كتاباتهم التي تم تداولها بشكل واسع بين المتصوفة لاسيما اتباع الطريقة الخلوتية، لاسيما كتابات الخاني المتعلقة بالرحلة الروحية إلى الله تعالى التي قسمها إلى سبع درجات وهي مطابقة لسبعة أماكن حساسة في الجسم، وطبيعة الذكر (اسم محدد من أسماء الله الحسنى) لكل مرحلة وصفاتها الروحية.
- 9- شجعت الدولة العثمانية التصوف وآمنت بولايته واعتقدت في شيوخه إلى درجة كبيرة وقرب ولاتها وأمرائها رجالة، حتى أخذ العديد من المتصوفة بالسفر إلى مصر من تركيا نفسها.

المصادر:

أولاً: الكتب باللغة العربية

- أبي عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، سلسلة كتاب الشعب، تحقيق أحمد الشرياصي، الطبعة الثانية، القاهرة 1998.
- أبي علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي، طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية، وضع حواشيه مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت 2005.
- أبي قاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 2001.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، السيد أحمد البدوي: شيخ وطريقة، سلسلة اعلام العرب (58)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (د.ت).
- سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة 1992.
- عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمتها وروادها: الرفاعي - الجيلاني - البدوي - الشاذلي، الدسوقي، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة (د.ت).
- عبد الحكيم خليل سيد أحمد، المعتقدات الشعبية في الطقوس والشعائر الصوفية: دراسة ميدانية للطريقة الجازولية الحسينية الشاذلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2012.
- عبد القادر موسى المحمدي، نشأة التصوف الإسلامي وتطوره في العراق، سلسلة دراسات (120)، دار الشؤون الثقافية العامة/ وزارة الثقافة، بغداد 2013.
- عبد الوهاب الشعرائي، إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين، تحقيق مهدي اسعد عرار، دار الكتب العلمية، بيروت 2007.
- عبد الوهاب الشعرائي، الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية، تحقيق عبد الهادي محمد الخرسه، دار البيروتي، دمشق 2010.
- عبد الوهاب الشعرائي، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق وتقديم طه عبد الباقي سرور ومحمد عبد الشافي، مكتبة المعارف، بيروت 1988.
- عبد الوهاب الشعرائي، الطبقات الكبرى المسمى لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية، سلسلة المكتبة الصوفية، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت).
- عمار علي حسن، الصوفية والسياسة في مصر، سلسلة كتاب المحروسة، مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر، القاهرة 1997.
- محمد صبري الدالي، التصوف وأيامه: دور المتصوفة في تأريخ مصر الحديث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2012.

منال عبد المنعم جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الإسكندرية (د.ت).  
ميكل ونتر، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة  
2001.

الهيئة العامة للاستعلامات، العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي، منشورات وزارة الإرشاد القومي، القاهرة (د.ت).  
ينظر، توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، السلسلة الفلسفية والاجتماعية (3)، مكتبة الآداب، القاهرة  
(د.ت).

يوسف محمد طه زيدان، الطرق الصوفية وفروع القادرية في مصر، دار الجيل، بيروت 1991.  
يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، السيد احمد الرفاعي قدس الله سره: حياته - آثاره (512 هـ - 1118 م - 578 هـ -  
1182م)، مطبعة الإرشاد، بغداد 1970، ص 11-63، ابن الملحن، طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين  
شريبه، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، القاهرة 1994.

#### ثانياً: الكتب باللغة الإنكليزية

Nathan Hofer, The Popularization of Sufism in Ayyubid and Mamluk Egypt 1173 -1325,  
Edinburgh University Press, Edinburgh 2015.

Rachida Chih, Sufism in Ottoman Egypt: Circulation, Renewal and Authority in the Seventeen  
and Eighteen Centuries, Routledge Publications, New York 2019.